مسيحيو الشرق بين المطرقة والسندان

بقلم الدكتور انطوان ل. البستاني

النهار ٢٠٠٥/١/٧: ثلاثة مشاهد لفتتني واثارت قلقي ودفعتني الى طرح تساؤلات مصيرية حول الوجود المسيحي في هذا الشرق البركاني الوضع، ربما لان الفارق الزمني بينها قصير اذ لا يتعدى بضعة ايام، مما ساهم في تراكم القلق.

فخلال اسبوع الميلاد، عرضت قنوات التلفزيون العربية والاجنبية ثلاثة احداث لها علاقة بالمسيحيين في ثلاث دول شرق اوسطية.

المشهد الاول: الانبا شنوده، بطريرك الاقباط في مصر، يطل من على شرفة كرازته، "مبتسما" و"فرحا" بعدما قطع اعتكافه اثر تجاوب الرئيس المصري باطلاق بعض الشبان الاقباط الذين اعتقلتهم الشرطة خلال قيامهم بتظاهرة – غير سياسية طبعا – للمطالبة ببعض حقوقهم والاعتراض على احدالتعديات عليهم. وكان هذا العفو بمثابة هدية العيد تكرمت بها السلطة لفئة من مواطنيها. ولسنا في وارد الكلام عن وضع الاقباط السياسي والاجتماعي في بلد لا دخل لنا بشؤونه ولا يحق لنا التدخل بشجونه، اذ يبدو ان المعنيين بالامر والقيمين على هذه الجماعة، هم اهل للقيام بذلك. انما هذا لا يمنع مواطنا مسيحيا مشرقيا من ملاحظة ما يجري لمجموعة من ابناء دينه، اذ يشعر شاء ام ابى، في وعيه او لاوعيه، وامام هذا المد الطائفي والمذهبي الذي يلف المنطقة باسرها، ومن خلال عروبته ورغمها، برابط بهم على غرار الرابط الذي يجمع، واحيانا بوضوح صارخ، بين ابناء الديانات والطوائف الاخرى التي يعج بها هذا الشرق، مهدها وساحة ترعرعها.

ولو اكتفينا بهذا المشهد، لربما كان الحدث مر مرور الكرام ولكان من يهمه الامر تابع مصير غالبية الشبان الذين لا يزالون قابعين في السجن في انتظار محاكمتهم.

والمشهد الثاني: في العراق، خلال الاحتفال بالقداس ليلة الميلاد، خمسة مؤمنين،اربع نسوة ورجل، يشكلون جمهور المصلين في مناسبة تحشد المؤمنين الذين تغص بهم الكنائس في العالم. في العراق، موطن ملوك المجوس الذين سجدوا ليسوع في مغارته كما تروي لنا الاناجيل المقدسة، في هذه الارض التي احتضنت بدايات المسيحية والتي خرج منها المبشرون الى اصقاع الشرق الكبير حاملين الرسالةالسموية الى السكان الوثنيين آنذاك، ومنهم الراهب رابولا السميساطي (وسميساط من اعمال الرها في العراق) الذي وصل الى بيروت في القرن الخامس فبنى كنيسة، ثم حل في دير القمر ليبني اول معبد للاله الواحد على انقاض المعبد الرومانيللهة القمر، في هذا العراق، شاهد العالم عام ٢٠٠٤ للميلاد، خمسة مصلين فقط لا غير، في قداس ليلة الميلاد. والله لم يعرف المسيحيون الاوائل في روما خلال اضطهادهم في عصور البطش والجهل والظلم والعبودية والقهر، لم يعرفوا هذه الضآلة في حضور مراسمهم الدينية والمشاركة فيها. ألأنهم كانوا يتجلوزون الخوف الذي يتملكهم اليوم، ويتجاهلونه؟ هل كان ايمانهم اقوى مما هو عليه اليوم؟ بالتأكيد نعم، فليس اقوى من الايمان لازالة كابوس الخوف. وهل المتطرفون الاسلاميون اليوم اشرس واعنف مما كان عليه الرومان في اضطهادهم المسيحيين آنذاك؟ بالطبع لا. ورغم ذلك لم يتهافت هؤلاء الى الهرب نحو البلاد المجاورة. وهل كانت الوحوش الضارية التي تنهش اجسادهم آنذاك في الحلبات العامة امام آلاف المشاهدين، اشرس من الوحوش البشرية التي تغتالهم اليوم بالعشرات وتنسف كنائسهم امام ملايين المشاهدين على شاشة التلفزة؟ لا والف لا. رغم ذلك، لم يفكر احدهم "بالهجرة" مرة، بل تغلبوا على الموت، والكل يعرف البقية...

لست هنا في وارد التنظير والوعظ ولا ابدي آراء مجانية، بل اكتب من خلال تجربة لبنانية لا تقل هولا وقساوة عما في العراق – اللهم الا اذا ضعفت الذاكرة مع مرور الزمن – وهذا لم يمنع الكثيرين، وانا منهم، من الصمود والبقاء حتى مرور العاصفة، ثم التفاهم واعادة اللحمة مع السواد الاعظم من اخوتنا اللبنانيين الذين لم يكونوا موافقين على كل ما جرى في الحرب المشؤومة.

المشهد الثالث: في اورشليم – القدس المحتلة، رجلا دين من الطائفة الارمنية في طريقهما الى مكتب رئيس بلدية المدينة، الذي دعاهما... للاعتذار(!) عما اقدم عليه بعض اليهود المتطرفين من اطلاق شتائم وكلمات بذيئة وتحرشات عدوانية موجهة الى الصلبان المعلقة على صدورهواعناق بعض رعاياهم. شكرا للاعتذار.

وهل البقية الباقية من المسيحيين في مهد المسيح ضاقت بأعينهم الى هذه الدرجة؟ اذا كان لا بد من جواب، فالجواب يطول ويطول. ليس المهم سرد الاحداث الثلاثة كل على حدة، اذ بالتأكيد هناك العديد من الحوادث المشابهة تحصل وتبقى طي الكتمان. المهم هو المغزى منها مجتمعة. السؤال الاول والبديهي الذي يتبادر الى الذهن يتعلق بالفارق بين التطرف الاسلامي والاصولية الصهيونية في ما يخص هذا الموضوع بالذات، اي الوجود المسيحي في الشرق. الا يحق لنا بان نتساءل: من هم الاعداء ومن هم الحلفاء؟ هل يكفي الاعتذار للخلود الى الطمأنينة؟ ونسترسل في التساؤل: هل الخوف جائز؟ وهل الاعتراض ممنوع والاحتجاج صار من باب الوقاحة؟ ان هدف تلك التصرفات التي تلتقي من حيث يدري او لا يدري فاعلوها، واضح للعيان ومعلوم لمن يتمتع بذرة من الفهم والتحليل. انما ما العمل؟ هل علينا الانتظار لاكتمال مراحل "التهجير" للوصول الى الوطن الملجأ، ملجأ المضطهدين في هذا الشرق مدى العصور، ام للهجرة الى بلاد الله الواسعة في العالم، هذه البلاد التي هي ايضا، من حيث تدري او لا تدري، تساهم في هذه العملية التي يمكن تصنيفها بين الجرائم ضد الانسانية؟

ولكن ما بنا نستدر العواطف، اهي اولى الجرائم ضد شعوب هذه المنطقة، الشعوب الغارقة في نوم اعمق من نوم اهل الكهف والبعيدة عن مصلحتها كبعد الارض عن كوكب المريخ؟

بين مطرقة الاصولية الاسلامية وسندان الاصولية الصهيونية، هل من تقاطع؟ هل من تناغم؟ هل ان الوجود المسيحي الذي ادخل حضارة المحبة والتسامح في هذا الشرق تحول الى "مصيبة" عليهما، جمعتهما؟